كرامة الإنسان المعاصر

الإيكونوموس الأب أنطوان ملكي المغبوط الذكر

"فَإِنِّي أَرَى أَنَّ اللهَ أَبْرَزَنَا نَحْنُ الرُّسُلَ آخِرِينَ، كَأَنَّنَا مَحْكُومٌ عَلَيْنَا بِالْمَوْتِ. لأَنَّنَا صِرْنَا مَنْظَرًا لِلْعَالَمِ، لِلْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ. نَحْنُ جُهَّالٌ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحُكَمَاءُ فِي الْمَسِيحِ! نَحْنُ ضُعَفَاءُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَأَقْوِيَاءُ! أَنْتُمْ مُكَرَّمُونَ، وَأَمَّا نَحْنُ فَبِلاَ كَرَامَةٍ! إِلَى هذِهِ السَّاعَةِ نَجُوعُ وَنَعْطَشُ وَنَعْرَى وَنُلْكَمُ وَلَيْسَ لَنَا إِقَامَةٌ، وَنَتْعَبُ عَامِلِينَ بِأَيْدِينَا. نُشْتَمُ فَنُبَارِكُ. نُضْطَهَدُ فَنَحْتَمِلُ. يُفْتَرَى عَلَيْنَا فَنَعِظُ. صِرْنَا كَأَقْذَارِ الْعَالَمِ وَوَسَخِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى الآنَ. لَيْسَ لِكَيْ أُخَجِّلَكُمْ أَكْتُبُ بِهذَا، بَلْ كَأَوْلاَدِي الأَحِبَّاءِ أُنْذِرُكُمْ. لأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ لَكُمْ رَبَوَاتٌ مِنَ الْمُرْشِدِينَ فِي الْمَسِيحِ، لكِنْ لَيْسَ آبَاءٌ كَثِيرُونَ. لأَنِّي أَنَا وَلَدْتُكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ بِالإِنْجِيلِ. فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُتَمَثِّلِينَ بِي" (كورنثوس الأولى 4:9-16).

هذه القراءة من عند الرسول بولس، هي حاجةٌ لأن يسمعها كلّ مؤمني هذا العصر. فالناس، كانوا ولا يزالون، يسعون وراء المواهب والمراكز والكراسي ليحصلوا على كراماتٍ زمنيّة. إضافةً إلى أنّ التقدّم الذي حقّقته البشريّة يجعل إنسانَ اليوم أكثر اتّكالاً على ذاته، وعلى علومه ومعارفه وقدراته، من اتّكاله على الله.

يريد بولس الرسول أن يقول من خلال رسالته إنّ الكرامة الحقيقيّة هي في حمل الصليب مع المسيح. فهو يصف الرسلَ، وهو منهم، بالجهّال، فيما العلم والمعرفة هما همّ الناس الأوّل، وهم مستعدّون للتضحية بكلّ شيء على طريق السعي إلى اكتسابهما وتكديسهما وحمل الألقاب التي تدلّ عليهما. هو يصف الرسلَ بأنّهم ضعفاء، فيما يتسابق الناس إلى اكتساب تحصيل ما يشعرهم بالقوّة، عن طريق المراكز أو الوظائف أو الاصطفافات أو التزلُّم. يصف الرسلَ بأنّهم بلا كرامة، فيما يحسُّ إنسان اليوم بالخيبة من دون المركز الأوّل والمقعد الأوّل. يقول إنّ الرسل يرضون بأن يُشتَموا ويُفترَى عليهم، فيما يرفض إنسان اليوم أن تُوجَّه إليه أيّة كلمة، حتّى الملاحظة البنّاءة. يصف الرسل بأنّهم صاروا أقذار العالم، فيما يخجل بعض الناس اليوم من أن يُسَمّوا مسيحيّين، ويرفضون أن يناديهم أحدٌ بعبيد الله.

انتفخ أهالي كورنثوس وظنّوا أنّ ما يتمتّعون به من وسائل الراحة والتقدّم، بالنسبة إلى ذلك الزمان، يكفيهم ليقتنعوا بأنّهم يتقدّمون على الآخرين، ومن بينهم الرسل. أمّا الرسول فيقول لهم إنّ التقدّم والشبع الحقيقيّين هما في احتمال الضيقات والاضطهادات؛ ولتواضعه، وضعَ نفسه في المؤخرة كالمحكوم عليه بالموت. يبحث أهالي كورنثوس عن الكرامة في العالم، وهو يطلب منهم أن يتشبّهوا بالرسل الذين يبحثون عن الصليب الذي فيه كرامة لله. مشكلة أهل كورنثوس أنّهم كانوا بلا آلامٍ فانتفخوا، لأنّ مَن يحمل صليبه لا يُصابُ بالكبرياء. أوسمة الشرف الحقيقيّة التي يفتخر بها الرسول هي الجوع، والعطش، والعري، واللَّطم، وعدم الاستقرار، وتحمّل السخرية والشتائم، وعدم مقابلة الشرّ بالشرّ. وذروة الشرف عند الرسول هي في مباركة مَن يشتمه، واحتمال الاضطهاد، ومقابلة الكلام الرديء والافتراء بالكلام الطيّب والإرشاد والوعظ.

كتب الرسول هذا الكلام لا ليُخجِل أهالي كورنثوس بل ليَعِظَهم. هو لا يذكر آلامه أو يقارن بينه وبين ما يتمتّعون به لكي يظهر مساوئهم، بل لأنّه ولدَهُم بالمسيح. في نهاية القراءة، يوردُ الرسول تمييزه بين المرشد والأب على نحوٍ عظيمٍ وواضحٍ ينطبق على كلّ زمان. ففكرة المرشد أتَت من الحضارة اليونانيّة، وهو الذي يوكَلُ إليه بالطفل فيَصحبه إلى المدرسة ويدرّبه على الأخلاق الحميدة. أمّا الأب فيختلف عن المرشد ويتقدّم عليه، لأنّ الأبوة والبنوّة الروحيّتين، بحسب بولس الرسول، هما تمامًا في المسيح، وعلى مثال العلاقة معه، وتقومان على تمثُّل الأبناء بالآباء. لذا، نتعلّم في الكنيسة أنّ الأبوّة والبنوّة في المسيح تبدآن بالولادة في المعموديّة، وتستمرّان في الإيمان، وتُزهِران في الاعتراف. ولكي يجري هذا كلّه، لا بدّ من إطارٍ هو جسد المسيح أي الكنيسة. لا أبوّة خارج الكنيسة، ولا ثبات للأبناء إلاّ في المسيح وكنيسته. قد يكون هناك مرشدون، وربواتٌ (أعداد كثيرة) منهم، ولكن دائمًا هناك أبٌ واحدٌ ينبغي للمؤمن أن يلتصق به.

إنّ دعوة الرسول بولس لأهل كورنثوس إلى أن يكونوا متمثّلين به، كما يتمثّل الابن بأبيه، ما تزال قائمةً إلى المسيحيّين كلّهم في الأماكن والأوقات كلّها. إنّ المسيحيّة الحقيقيّة هي حياة "تعالَ وانظر"، وقوامُها قبول السلوك في كلّ ما سبق وصفُه في هذه القراءة من الرسائل. إنسان اليوم متمسّكٌ بما حقّقه من الرفاهية ووسائل الراحة، فكيف له أن يقبل الجوع والعطش والعري والتشرّد؟ إنسان اليوم يهرب من الالتزام، فكيف له أن يحتمل الاضطهاد؟ إنسان اليوم محور حياته الكلام والنقاشات والمقرّرات والأوراق، لذا يصعب عليه التمثُّل بالرسل والقدّيسين.

https://www.orthodoxlegacy.org/?p=27